المصدر : الاهـــرام
التاريخ : ٢١ يونية ٢٠٠٠

سوريا بعد الرحيل

فى عالمنا العربى مشاهد، تحدث فورانا فى حركة تفكيرك رغما عنك، وتمسك بعقلك ليتأمل، حتى وان لم يكن لديه ميل للتأمل وان كانت الرغبة عنده ان يمر بما تراه العين مر الكرام.

مثل هذه المشاهد لها قدرة فائقة على التأثير، بما فيها من درامية، وما تحمله من مؤثرات، ولها أبطال وأسماء. لكن ما استوقف عقلى هذا الأسبوع، يتجاوز حدود الأسماء أيا كانت، لأنه يعكس حالة عامة، تتكرر فى عالمنا العربى فى المناسبات، دون تغيير فى المضمون أو فى الحوار والكلمات التى تقال، برغم ان الزمن يكون قد تغير، والظروف اختلفت عما كانت عليه من قبل.

يحدث هذا بالرغم من أن الإنسان بطبعه كائن عاقل يتعلم من التجارب، ويستخلص منها الدروس والعبر، ويتطور وينمو وينضج عقله وتفكيره، ويكتسب الحكمة والرشد - أو هذا هو ما يفترض. ثم حين تواتيه الفرصة، ليتكلم بعد ان مضى به العمر، وعركته التجارب، فإن من يستمعون اليه يتوقعون منه ان يفيض عليهم بحكمته، ويشير لهم بالصواب فى موضعه، وبالخطأ أو الخطيئة فى أى مكان هما.

لكن المصيبة التى لا تعادلها مصيبة، اننا نفاجأ حين يصل إلى سمعنا صوت كان قد طواه السكوت طويلا، أنه لم يتعلم شيئا، أو أن «حسه الوطنى» قد أصابه ضمور، والأهون من هذا أن البعض الآخر، الذى يكتشف خطأه، ويدرك أسبابه، ويضع يده على مواطن العلل، تكون الفرصة قد فاتته، لأن اكتشافه جاء وهو خارج السلطة، بعيدا حتى عن أسوارها الداخلية، ليس فى يده أن يزرع بذور الديموقراطية التى أدرك قيمتها أخيرا، لتنبت وتترعرع وتظلل بخيرها أمته، فهو قد إمتنع عن غرسها فى الأرض حين كان هو صاحب القول والقرار.

المشهد الذى شدنى - واكرر أن الأسماء هنا ليست بيت القصيد وليست هى صميم الموضوع - لكنها هى صانعة هذا المشهد.

فما أن شيعت سوريا الرئيس حافظ الأسد، واستقرت الأمور باختيار ابنه بشار الأسد - حتى جاء من خارج سوريا صوت اثنين بالاعتراض، الأول رفعت الأسد شقيق الرئيس الراحل، مطالبا بالحكم، وإن قال: إن الخلاف ليس على المنصب، وانه لو جاء فستحل الحرية والديموقراطية.

والثانى اللواء أمين الحافظ - الذى اتخذ من العراق منفاه لسنوات طويلة - بعد الإطاحة به، إثر حكمه لسوريا من ١٩٦٢ إلى ١٩٦٥.

وكان مطلبه إجراء انتخابات حرة، وحكومة محايدة تشرف على الانتخابات.

ولو اننا مررنا بسرعة على الاسمين، وكلاهما يتكلم عن الديموقراطية كأنها قضيته ومراده، فسنجد أن خروج رفعت الأسد من سوريا مبعدا عام ١٩٨٢، لم يكن لأسباب لها علاقة بالديموقراطية.

أما الآخر، أمين الحافظ فهو الشهير فى نوادر التاريخ العربى، بحكاية الإسرائيلى إيلى كوهن، الذى تعرف عليه وهو مازال ملحقا عسكريا لسوريا فى الأربعنتين فى أواخر الخمسينات، وأصبح صديقه المقرب بعد أن أقنعه باسمه المستعار كامل أمين ثابت، أنه سورى الجنسية، بعثى الانتماء، قومى الحس والشعور.

ولما أطيح بالحكومة القائمة فى سوريا فى عام ١٩٦٢، وجاء اللواء أمين الحافظ ليكون الرئيس الجديد فى دمشق، فكان من أول انجازاته، أنه أتى بصديقه كامل أمين ثابت، ليلحق به، ويضمه إلى القيادة القطرية لحزب البعث، ليقترب من كل تفاصيل الخطط العسكرية، حتى كاد يصبح مرشحا لتولى وزارة الدفاع، وهو دائب كل ليلة على الاتصال باللاسلكى بقيادته فى المخابرات فى إسرائيل يزودهم بكل الأسرار، إلى أن اكتشفت المخابرات المصرية أمره، وطار رسول من القاهرة فى الليل إلى دمشق حاملا ملف إيلى كوهن إلى أمين الحافظ الذى أيقظوه من نومه، ليقابل الرسول القادم فى مهمة عاجلة وسرية. وليتم إعدام ايلى كوهن بعدها بقليل.

ولو افترضنا أن هذه النقطة شديدة السواد، هى الوحيدة فى سجل تاريخ أمين

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية

الحافظ، لكان متوقعا أن يدفعه الحياء الوطني، لأن يتوارى، ولا يذكر أمته بفعلته. وبصرف النظر عن تلك الوصمة، فلقد كان هو الآخر ديكتاتورا لا يعرف للحرية معنى، ولا للديموقراطية قيمة، لكنه وقد فقد السلطة والسلطان بل وحتى فكرة طلب الغفران - جاء اليوم يتكلم عن الديموقراطية ويتباكى عليها.

أعود لتأكيد ما سبق أن ذكرته بأن الأسماء هنا ليست هي الموضوع، لكن - كما يقال - الشيء بالشيء يذكر، الواقعة أو المشهد الدرامي المثير المتكرر في عالمنا العربي، هو الذي ظهرت فيه أسماء بعينها، فنحن لا نتعرض لاسماء، لكن لحالة عربية بصرف النظر عن أبطالها.

وعلى سبيل المثال - فإنني أتوقف أمام نموذج آخر واسم مختلف، مع الفارق طبعا. هو اسم أحمد بن بيللا، أول رئيس للجزائر المستقلة، والفارق هنا، ان بن بيللا كان أحد أبطال ثورة الجزائر، وواحدا من المجموعة القليلة التي كان لها السبق في اطلاق شرارتها، واعلان القتال المسلح ضد قوات الاحتلال الفرنسية. لكن الاستشهاد ببن بيللا، راجع إلى أن الرجل قد عشق الحكمة بعد أن تبصر الجذور الحقيقية للمنزلق الذي هوت عليه الجزائر على مدى سنوات طويلة، وأنه لو كان من يحكم وقتذاك واتته البصيرة والشجاعة، ومضى ببلاده في طريق الديموقراطية وليس الانفراد بالحكم لشخص أو لحزب جبهة التحرير الوطني، لتعدل مسار البلاد، وتجنبت ما حل بها من تدهور وتأخر وجمود وتمزق وصراعات ودم. لكن بماذا يفيد هذا الآن بعد أن ألت المقاليد لغيرك، ولم يعد في يدك ما تستطيعه.

بن بيللا كان أول رئيس للجزائر بعد استقلالها عام ١٩٦٣، إثر انتصار حركة الكفاح المسلح، وعودته إلى بلاده محمولا على الأعناق، لا أحد ينافسه في الفوز بقلوب شعبه، إلى أن أطاح به قائد جيشه هواري بومدين الذي خلفه عام ١٩٦٥، وظل بن بللا حبيس الاعتقال حتى أطلق سراحه عام ١٩٨٠.

وفي تاريخ الشعوب ما يسمى بالفرص الذهبية الظائعة، وهي ذهبية لأنه لو أن من أتيحت له انتهزها، ولم يفرط فيها، لتغير تاريخ أمته بالكامل، ولصار له فيها مكانة العظماء، وليس فقط القادة والزعماء.

لكن السلطة المطلقة - واكرر المطلقة - لها متعة، تجعل من يعايشها، فاقد القدرة على هذه النظرة البعيدة المدى، مقتنعا بأن التفريط ولو في بعض منها معادل للتفريط في الحياة ذاتها، مصابا بحالة من الخوف القهري من أن تضيع منه السلطة، لو أن أحدا غيره شاركه فيها، وتقاسمها معه، وأنها قد تفلت بعدها من قبضة يده إلى يد هذا الشريك.

وإلا فلم لم يتكلم بن بللا بهذا الايمان عن الديموقراطية وهو متمتع بكامل سلطاته، ولم يظهر صوت الحكمة إلا بعد أن عاد للحياة السياسية عام ١٩٩١، مؤسسا تنظيما اسماه «الحركة من أجل الديموقراطية».

وهو الآن واحد ضمن عشرات السياسيين على هامش المجرى الرئيسي للحياة السياسية في بلاده، فتصور كيف كان سيصير أحد عظماء أمته - حتى ولو كان هو خارج الحكم - لو أنه انتهز الفرصة المبددة، وسمح بتعددية فعلية، وديموقراطية حقيقية كاملة، وبمنافسين يشاركون - بالاتفاق أو بالمعارضة - في إثراء مستقبل بلاده، وكيف كان حال الجزائر اليوم، لو احتسبنا السنوات الخمس والثلاثين منذ كان بن بيللا مازال رئيسا، وحتى اليوم. ألم يكن طبيعيا أن تقطع شوطا طويلا في طريق التقدم والرخاء والاستقرار الاجتماعي.

الجزائر مجرد نموذج، والأصوات التي علت تتحدث عن الديموقراطية في سوريا نموذج ثان، وكلها حالات عربية، للفرص الذهبية الضائعة، التي تكون في يد البعض لكنه لا يتباكى عليها إلا حين يكون قد ضيعها بالفعل وبارادته، وعندما ينصب التاريخ ميزانه، ويحاسب من أخطأ ومن أصاب، فإنه لا يأخذ بأي كلام يقال، لكنه يأخذ بما تفعله، وما تصنعه بشعبك وأمتك.

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية